الأمثال فى حياة اللغة

الأستاذ حامد حفنى داود

الأدب العربى بمعناه الخاص ينقسم إلى قسمين : شعر ونثر. النثر العربى صور شتى أهمها : الرسائل الأدبية بأنواعها الثلاثة : الديوانية والعامة والخاصة — ثم التأريخ الفنى والقصص — ثم الحوار والمناظرات — ثم المقامات والتوقيعات — ثم الحكم والأمثال — ثم الملح والفكاهة

وقد آثرت فى هذا المقال أن أتحدث عن «الحكم والأمثال» لما لاحظته فيها من تطور عجيب تختلف فيه فنون النثر العربى سواء فى نشأتها وتأريخها

والحكمة فى اللغة : القول الجليل ذو المعنى الشريف ، والمثل : القول البليغ المقتضب يضرب لشرح أمر أو تفسير ظاهرة أو تأكيد معنى من المعانى . ولا تختلف الحكمة عن المثل كثيرا ، وربما كان أخص ما تمتاز به أنها أقدم منه استعمالا وأشرف معنى وأعمق فكراً وأدل على المقصود وأبق مع الزمن

* * *

أما نشأتهما فترجع إلى أحداث قديمة تتصل بواضعى اللغة أو المتكلمين بها فى أقدم عهودها ؛ فأكثر الأمثال يعود بنا فى نشأته وظهوره إلى العصر الجاهلى ، يوم كانت اللغة فى عنفوان شبابها ، وكادت تنحصر فى الجزيرة العربية ، والعرب بعيدون عن الأعاجم تقريبا ، وقبل أن يختلطوا بهم ويتفشى اللحن فيهم

ولكن من هؤلاء الذين أرسلوا هذه الأمثال ؟ لا شك أن هذه الأمثال لم تنزل من السماء أو ينزل بها الوحى . ولو أننا استطعنا أن نصدق أن مفردات اللغة كانت « تلقينيه توقيفية » كما يزعم الفقهاء استدلالا بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها »(١) فإننا نجزم أن أكثر الأمثال — إن لم يكن جميعها — « اصطلاحى » ؛ لأنها — كما سنحقق — من صنيع العربى الصراح ووليدة تفاعله الشعر مع بيئته

وربما كان شعراء الجاهلية أسبق من خطبائها إلى هذا اللون من الفن النثرى . وقد تعجب لذلك لأن أكثر الأمثال لون من ألوان النثر وليست من باب الشعر . ولكنك لا تلبث أن تقتنع إذا علمت أن العناصر الأدبية وهى : الفكرة والخيال والعاطفة والأسلوب . تتحقق فى نفسية الشاعر قبل الناثر . ومن هنا كانت الأمثال أشبه بالشعر المنثور يرسله الشاعر قبل الناثر

ولعلك تؤيد هذا الزعم الذى ذهبت إليه إذا علمت أن أكثر الأمثال العربية التى دونها لنا القدماء من مؤرخى الأدب العربى ترجع فى وضعها إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين

وقد كان شعراء الصعاليك — وهم الرعيل الأول من شعراء العصر الجاهلى — أعظم حظا وأوفر نصيبا من إخوانهم فى هذا الباب . ولعل ذلك يرجع إلى استعدادهم الفطرى البالغ وتفاعلهم الصريح بالبيئة العربية الصارخة التى أبدعت هذا اللون من الأدب النثرى . واشهر من بين هؤلاء جماعة كثيرون عرفوا بضربهم فى فيافى الجزيرة وتصرفهم فى مجاهلها . نذكر منهم على سبيل المثال : « تأبط شرا » و« أبا الطمحان القينى » و « السليك بن السلكة » و « والشنفرى »

وقد كانت هذه الأمثال وليدة أحداث ووقائع اعترضت هؤلاء الشعراء فى حياتهم . قيل : لما أسر أسيد بن جابر « الشنفرى » ، قال إخوان أسيد للشنفرى : أنشدنا . فقال : (إنما النشيد على المسرة) وأرسلها مثلا . وحكوا أن « السليك » سار ليلة على رجليه رجاء أن يصيب شيئا ثم نام ، وبينما هو نائم جثم عليه رجل وقال له : استأثر ، فرفع السليك رأسه قائلا (الليل طويل وأنت مقمر) فذهبت مثلا(٢) حدث كل ذلك والعرب فى بيئتهم ، ونطقوا به منجما وفق أحداث الحياة ووقائعها ، ولم يرثوه عن أجدادهم تلقينا وتوقيفا كما ورثوا مفردات اللغة(٣) وإنما تحكمت البيئة فى الاصطلاح

(١) المزهر لجلد القرن العاشر جلال الدين السيوطى ص ١١، ١٢

(٢) شعراء الصعاليك من الغرب «لصاحب هذا المقال»

(٣) على رأى القائلين بالتوقيف

والتواضع عليه

* * *

ولم يكد يظهر الإسلام وينتشر فى بقاع الأرض شرقا وغربا حتى عمت هذه الأمثال — كما عمى غيرها من آداب اللغة — إلى ألسنة المتأدبين والناطقين بالعربية من عرب وأعاجم . ولكن قافلة الأمثال لم تسلك الطريق الذى سلكته قافلة الرسائل وغيرها من صور النثر . أريد أن أقول : إن تاريخ الأمثال العربية يغاير فى نشأته وتطوره تاريخ الكتابة والرسائل مغايرة تامة . ذلك لأن الأمة العربية لم تنشأ حاجتها إلى الكتابة المنظمة والرسائل المدونة التى نقرأها فى كتب الأدب إلى حين تعقدت الحياة واتسعت رقعة الدولة واحتيج إلى العمال فى الأقاليم لإحصاء أمور الإمبراطورية الإسلامية وتنظيم سياستها الداخلية والخارجية . أما الأمثال فإنها لم تتحدد بهذا الزمن أو تختنق فى هذه الدائرة الضيقة أو تتوقف على هذه الأسباب لأنها من الحياة اليومية فى الأسرة والمجتمع . وقد كانت ولا تزال فى كل زمان ومكان من الرجل العاذج والعامى والجاهل ومحدود الثقافة فى الوقت الذى كانت فيه ولا تزال من الكاتب الكبير والأديب المبتكر . بل ربما كانت عند العاذج والجاهل أوفر استعمالا من غيره

ومن هنا نستطيع أن نعلل كيف كانت الأمثال أسرع فنون النثر تطوراً ، وكيف سلكت طريقها فى الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموى وهى تنمو نموا مطرداً . إنها لم تتأخر إلى هذا الحين الذى نشأت فيه الكتابة الديوانية ؛ التى جودها عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم . بل سلكت طريقها صعداً إلى الأمام منذ مولدها على لسان العربى فى بيئته الجاهلية ، وتلونت بالحياة الاجتماعية فى شتى أحوالها وأطوارها وصورها المختلفة فى التاريخ ؛ ذلك لأنها — كما قدمت — كانت جزءا من لغة الحياة وزخرف القول الذى لا بد للناس منه فى كل يوم

وهنا لا نعجب إذا رأينا أن تطور الأمثال لم يقف أو يجمد فى اليوم الذى وقفت فيه وجمدت حياة الكتابة الديوانية أواخر القرن السابع الهجرى(٤) ولا شك أنك ترى معى أن هذا راجع إلى السبب الأول نفسه — وهو أن الأمثال من الأدب اليومى عند العامى والمثقف على السواء . فظاهرة الاستعمال والتفاعل مع الحياة اليومية هى التى حفظت الأمثال ورونقها وأبقت عليها حياتها

* * *

وثمة فارق آخر تتميز به الأمثال عن غيرها من فنون النثر ، ذلك أن هذه الفنون الأخرى حين جمدت فى أواخر القرن السابع صارت صوراً أدبية قديمة كلاسيكية لا وجود لها فى واقع حياتنا اليومية ، فلم يستطع أحد من الأدباء المتأخرين أن ينقلها إلى واقع الحياة ، كما لم يستطع العامة أن ينقلوها إلى ألسنتهم الدارجة أو تأخذ مكانها من نفوسهم وحياتهم التى تتطور يوما بعد يوم . لقد عجزت هذه الفنون عن مواصلة حياتها لأنها جفت قبل أن تصل إلى أيدى العامة واستعمال سواد الناس لها ، على حين تلونت الأمثال تلوناً سريعا بعاميتنا العربية وخاصة فى العصرين : المملوكى والتركى . واستطاعت خلال هذه الحقبة الطويلة أن تخوض معركة العامية وأن تحرز النصر وأن تكسب جائزتى « التحرر » و « الخلود » معاً — دون أخواتها من فنون النثر . ومن ثم فرضت نفسها على الحياة كما فرضت العامية نفسها

ولعلك تعجب كثيرا حين ترى سبعة أعشار لغتنا العامية — اليوم — من هذه الأمثال . فلا تكاد تسمع أحداً ممن يتكلمون بالعامية الصرفة أو العامية المهذبة لا يستعمل هذه الأمثال بين الفينة والفينة . وهناك كثيرون من مفكرى العامة من يستطيعون أن يجعلوا حديثهم كله سلسلة عجيبة متتالية من الأمثال . ولم العجب وقد ولدت ونموت فى بيئتهم التى يعيشون فيها وورثوها عن آبائهم . فهى صنيعة وراثتهم وبيئتهم وعقليتهم وطوع ألسنتهم

وهل منا من ينكر ذلك ونحن نتحدث عن ظاهرة طبيعية واجتماعية . لغوية من مظاهر الطبع والسليقة . وإذا كنا نصدق أن من الصوفية من تحرز فى كلامه المباح من أن ينطق بغير الآيات القرآنية فى كل ما يسأل فيه أو يجيب عنه ، وأن من الشعراء من حاول أن يجعل جميع كلامه من الشعر لا فرق عنده بين أحاديث الأدب والأحاديث المباحة . وأن الكسائى قال : لو شئت أن أجعل جميع كلامى مما يقوله النحاة فى اصطلاحاتهم

(٤) المنهج العلمى الحديث فى تاريخ العلوم العربية (لصاحب هذا المقال)